# أثرُ التَّقوَى فِي تَلَقّي الْعِلْم

أ.د. محمود توفيـق محمد سعـد(*)

لكلِّ عَملٍ استحقاقاتٌ يَجبُ علَى مَن شَاء أن يَقُومَ له لِيقومَ به عَلَى الوَجْهِ الأَمْجَدِ الأَحْمَدِ أنْ يكونَ بهذِهِ الاستحقاقاتِ عليمًا خبيرًا، ثُمّ يكونُ لَها مَليكًا، ثُمَّ يَكونُ بحسنِ استعمالِها ماهرًا نِطاسِيًّا، وكلّما كانَ العملُ أنبلَ كانَت استحقاقاته أكثرَ وأثقلَ، وليْس ثَمَّ عملٌ يقومُ به المَرْءُ بعدَ الإيمانِ باللهِ - تعالى - كَمثْلِ طلبِ العلمِ الصَّحيحِ الصّريحِ المُخرِجِ من الظُّلمات على تعدّدها وتنوّعها إلى النور الأبلج من مصادره الوثيقة أَحبَارًا وأَسْفارًا، ولا سيّما العلمُ بكتابِ الله -تعالى- وبسنّةِ سيدنا رسولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - وما يتولّد منهما من العلوم.

استحقاقاتُ القيامِ لطلبِ العلمِ، ثُمَّ لِخدمَتِهِ جدُّ كثيرةٍ مِنها ما هو ذاتِيٌّ ومِنها ما هو مَوضُوعيّ، ولعلّ أوّل هذِه الاستحقاقاتِ مَا يَجعلُ القائمَ لِطلبِ هذا العلمِ أهْلًا لأنْ يَتحقّق له حسنُ التّلقّي لِذلِك العلم تلقّيًا لا يَكتفِي فيه بظاهرِ المَعنى، بل يَسعَى إلَى الإحاطةِ المُحْكمَةِ بكثيرٍ من دَقائقِ ولَطائفِ وطرائفِ المَعاني الإحْسانيّةِ المَكْنُوزةِ فِيه.

وَلَمَّا كان العلمُ هُو أَساسَ كلِّ عَمَلٍ نَبيلٍ جَليلٍ في ذاته وفي آثارِه العاجلةِ والآجلة، كانَ أَوَّل اسْتحقاقاتِه حُسنَ العَلاقةِ باللهِ - سبحانه وتعالى - مُمَثَّلةً فِي الخَلاءِ مِمَّا يعوقه عَن هذا التَّلقّي مِنهُ - سُبْحانَهُ وَتَعالَى -.

وَكلُّ عِلْم فِيهِ مِن المَعاني الجمهُوريّةِ ما هُو ظاهرٌ يُدرَك بيسيرٍ مِن الجُهدِ وقليلٍ مِن الأدوات وذلك الضَّرْبُ مِن المَعانِي هو طَعام الدّهماء، ومِنْها مَا لا يُمْكِن إدراكُه فَضلًا عَن اسْتطعامِه وإحالتِه إلَى زادٍ نَفْسيّ وعقلِيٍّ وقَلبِيٍّ وَرُوحِيٍّ إلّا إذا كان المَرْءُ من النبلاء فِي طلبِ العِلمِ، محيطًا بِتحقِيق استحقاقاتِه.

ورأسُ ذلِك حُسْنُ العلاقةِ باللهِ - تعالى - تَخْلِيَةً وَتَحْلِيَةً.

وَحُسْنُ العلاقةِ تَخلِيَةً المُسمَّى بـ«التّقوَى» مُقدَّمٌ علَى حُسْنِ العَلاقةِ تَحْلِيَةً.

وللتقوَى مفاهيمُ عدّةٌ، أَصْطفِي هنا ما هو أليَقُ بك طالبَ علمٍ يَسْتشرِفُ أن يكونَ يومًا مِن العلماءِ الرّبانيين: ورثةِ سيدنا النّبيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - مُخرجًا للناسِ من الظلماتِ إلى النورِ:

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

رَوَى الترمذي في كتاب «صِفة القيامة» مِنْ جامِعِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِي ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ»، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

ورواه ابن ماجه في كتاب «الزهد من سننه»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في كتاب «البيوع» من سننه، وفي «شعب الإيمان»، وابن أبي شيبة في مسنده، والطبري في المعجم الكبير.

فهذا التّقِيّ يَدَعُ سبعين بَابًا مِن الحلالِ مخافةَ الوقوعِ في الحَرام، فمَن استنفدَ المباحاتِ وقع في المحرّمات لا محالة، فإنَّ النَّفسَ الإنسانيّة، ما مُنحت شيئًا إلا تاقتْ إلى مَا بعْدَه، فليكُنْ مِنك – طالبَ علمٍ – للحرامِ حمًى مِن المباحاتِ لا تحُومُ حوله، فمَن حام حولَ الحِمَى يُوشكُ أن يَقعَ فيه.

وطالب العلم بكتابِ الله تعالى وبسنة رسُوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – والعلوم المسْتمدّةِ منهما أحقُّ النّاس بأن يكونَ هذا منهاجه في الحياةِ ولا سيما في بابِ العقائدِ والأرزاقِ والمطاعم والنّساءِ، فإنَّ النَّفسَ البَشريَّة لا تكادُ تَشبَع مِن شَيْءٍ، ولا تكاد تنزعُ عن الشُّبهاتِ والشَّهواتِ.

وأَوَّلُ ما يَنبَغِي اتقاؤه في هذِه العَلاقةِ «الشّركُ بالله تعالَى»، والشّرْكُ درجاتٌ مِنْهُ ما هُو بالغُ الخَفَاءِ، فَلا يَكادُ يَفْطنُ لَهُ كَثِيرٌ مِن أولِي النُّهَى، فكيفَ بمن دونَهم، فغيرُ قليلٍ من المسلمين مَسَّهُ شَيْءٌ مِن الشّركِ الخفيّ، ولا سيّما في ما يتعلّقُ بأرزاقهم.

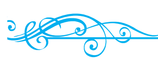
رَوَى الإمامُ أحمدُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي مُسندِه بسندِه أَنَّ سيّدنا أبَا مُوسَى الأَشْعرِي –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– خطب، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَزْنٍ وَقَيْسُ بْنُ الْمُضَارِبِ فَقَالا: وَاللَّهِ لَتخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرَ مَأْذُونٍ، قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:

«أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ».

تبصّر ما أجاب به – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – سؤال الصَّحابي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–:«وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

أحالَه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ– إِلَى الاستعاذةِ باللهِ – تعالى – مِنْهُ؛ إيماءً إِلَى عظيمِ دقَّتِه ولُطفِه، وأنّه ممَّا لا يُطيقُ العبدُ بنفسِه أنْ يقومَ به، فوجبَ عليْه أنْ يَبرَأَ من حَوْلِه وَقُوَّتِهِ



إلى اللهِ -تعالَى- فهُو وحده المُقتدِرُ علَى ذلك، وفِي البَراءَةِ مِن الحَولِ والقُوَّة تَمْكينٌ لمَعنَى صَفاءِ عُبوديّةِ المَرْءِ للهِ - تعالَى-، وهذا رأسُ الإخلاصِ الذي هو أول أبوابِ (التَّقوى).

وغيرُ قليل مِن المُسلِمينَ -ولا سِيَّما فِي زَمانِنا هذا- هُم واقِعون فِي الشِّرْكِ الخفيّ، ويَحسبُون أنَّهُم فِي حصَانةٍ مِنه، ولَو أنَّهُم راقبُوا ما تَنطِقُ بِه أَلْسنَتُهم لوجدوا فيها غيرَ قليل من الكلماتِ الكافِرةِ؛ إما عَنْ جَهلٍ بها وإما عن غَفلةٍ، ولوجدوا في ما تَتحرّكُ بِه قلوبُهم ما هو أدخلُ في الشرك على نحو ما نراه فِي طَمَعهم وإما رَهبهم من أحدٍ مِن العالَمين.

ولو أنّهم اسْتَبْصَروا لَعلِموا أنّهم لَمْ يُبْصِروا الحقيقة: لم يبْصِروا أنَّ أولئك الطّامعين فِي نوالهم، والرّاهبين طغيانَهم ما هُم إلّا أداةٌ يُنفَّذ بها قدرُ اللهِ - تعالى- وأنَّه لَن يكونَ فِي مُلْكِ الله -تعالى- إلّا ما أرادَ وَقدّر، فَحَقّ أنْ يحرّر المرءُ نفسَه مِن ملاحظةِ الأغيارِ، وأنْ يُعطِي لكلِّ مخلوقٍ قدرَه، لا يتجاوزُه، وقدرُ كُلٍّ لا يعدُو أن يكونَ أداةً لإنفاذ قدر اللهِ تعالى وإرادتِه.

فلا تَجْعَلنّ لغيرِ الله تعالى فِي قلبكَ حُضورًا فاعلًا، فهذا مبدأُ التّقوى.

والله -سُبْحانَهُ وتَعالَى- يقُول: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٦).

وقد تبيّنَ المُرادُ بِكلمَةِ التّقوَى عَن النّبيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - وأنّها كلمة (التوحيد): (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

روَى التّرمُذيّ في كتابِ (تفسيرِ القُرآنِ) مِن جامعِه بسندِهِ عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أبي بْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبيهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِي ﷺ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»(٥).

وروَى أحمدُ فِي مسندِه بسندِه عَنْ حُمْرَانَ بنِ أَبَانَ، أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لا يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حُرِّمَ عَلَى النَّارِ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَا أُحَدِّثُكَ مَا هِيَ، هِيَ كَلِمَةُ الإِخْلاصِ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى الَّتِي أَلاصَ عَلَيْهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ عِنْدَ الْمَوْتِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ»(٦).

وعلى هذا جرَى أهلُ العلمِ بكتابِ الله - تعالَى- في تأويلهم قول اللهِ تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (للقول بقية إن شاء الله تعالى)

(٥) رقم: ٣٢٦٥.

(٦) رقم: ٤٤٧.